الإصلاح التربوي في إطار المنظور الحضاري عند مالك بن نبي

بلطاس محمد[1]

طالب دكتوراه علوم– جامعة الجزائر **2**

تاريخ الاستلام: 2019/6/19 تاريخ القبول: 2019/6/27 تاريخ النشر: 2019/12/27

الملخص:

لقد شكل الإصلاح التربوي الأولويات الأساسية في السياسة الشاملة التي اتبعتها الدولة مباشرة بعد الاستقلال، وهو ما ساهم في ظهور عدة محاولات إصلاحية، تفاوتت في عمقها وابعادها، وان دراسة المشاكل التي تتخبط فيها الامة هي في الاساس حسب رأي مالك بن نبي مشكلات حضارية فإذا نظرنا الى ما تعانيه الامة من تخلف وجهل وانحطاط وتنازل عن القيم الروحية فأي تغيير وأي نهضة حضارية لهذه الامة والأنفس مهزومة مستعمرة.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح، الاستقلال، القيم، الحضارة

Résumé :

La réforme éducative était la priorité principale de la politique globale adoptée immédiatement après l'indépendance par l'État, ce qui a contribué à l'émergence de plusieurs tentatives de réforme, de profondeurs et de distances diverses, et que l'étude des problèmes qui se posaient dans le pays était fondamentalement conforme à l'opinion de Malik bin Nabi. Ce que la nation souffre de retard, d'ignorance et d'abandon des valeurs spirituelles, de tout changement et de toute renaissance culturelle de cette nation et de la colonie vaincue.

Mots-clés : réforme, indépendance, valeurs, civilisation

1 * Corresponding author, e-mail: mbeltas@hotmail.com

المقدمة:

تحتاج المدرسة إلى مراجعة وتطوير مناهجها التعليمية والتربوية تماشيا مع تطور المجتمع، فالإصلاح التربوي شكل الأولويات الأساسية في السياسة التعليمية الشاملة التي انتهجتها الحكومة بعد الاستقلال، ابرزها الامر 76/35 المؤرخ في 16افريل 1976، وقد برزت قبلها على الساحة عدة محاولات اصلاحية من قبل مفكرين من هذه الأمة فمنهم من أسهب في وصف سلبيات الواقع، ومنهم من قدم حلولا خيالية بعيدة كل البعد عن واقع الأمة كما انقسمت هذه الأفكار إلى فكر متطرف للأصالة منغلق عن الاستفادة من تجارب الآخرين يقابله فكر اخر منفتح انفتاحا لا مشروطا على الحضارة الغربية وذلك إثر الاحتكاك الاستعماري، الا ان هذه المحاولات فشلت في تحقيق الأهداف المنشودة، وهذا ما دعا الى التفكير في حلول أخرى ، تم طرحها من طرف المفكر مالك بن نبي وقدم تحليلا لمشكلات الأمة الإسلامية، مستعينا في ذلك بأدوات علم الاجتماع والتاريخ في تقصي الواقع وتحليله تحليلا نقديا يربط الحاضر بالماضي ثم بالمستقبل، فاخلص الى أن ذلك الأفول قد أدى بالمسلمين إلى الوقوع تحت سيطرة أوربا في القرن التاسع عشر ،ليكون ذلك الاستعمار الديناميت الذي نسف عالم ما بعد الموحدين، (بن نبي، 1992: 48)

الإشكالية:

لقد لاقت مسألة الإصلاح التربوي اهتماما كبيرا من طرف صناع القرار السياسي والتربوي على الساحة الدولية طوال عقود طويلة، وقد كانت هذه الحركة كردة فعل لمواجهة الأزمات والإشكاليات التي واجهتها بعض المجتمعات الإنسانية، كما تزايد الاهتمام بهذه المسألة عربيا ودوليا، حيث انطلقت صرخات متتالية، وعقدت ندوات ومؤتمرات متتابعة هنا وهناك تبحث في مسألة تطوير المنظومات التربية وتحديثها.

لقد أخذ الفكر التربوي عدة مسارات تنظيرية تفاوتت في عمقها وأبعادها، فالإصلاحيون اتجهوا نحو إحياء التراث الاسلامي النظري الأكاديمي دون تمحيص أو تدقيق أو شحذ للنفوس بالهمم العالية، في حين رأى التحديثيون أن تحقيق النهضة الحقيقية تكمن أساسا في تبني الفكر الغربي وما أنتجه من نظم اجتماعية وتربوية ومعرفية وغيرها من المنتجات من أجل تخطي عقبة التخلف.

اما مالك بن نبي فقد أخلص من خلال طروحاته الحضارية إلى أن الديناميكية المولدة للحركة التغييرية هي ظاهرة تاريخية ملازمة للحياة البشرية ناتجة عن تفاعل ثلاثة عوالم رئيسية هي:

-عالم الاشخاص

-عالم الافكار

-عالم الاشياء

ولكي تؤدي هده العوالم دورها فقد اضاف اليها عاملا اخر أسماه شبكة العلاقات الاجتماعية، او ما اسماه بالفكرة الدينية التي تعمل كمنظم ومفعل لهده العوالم الثلاثة، ويفهم من هذا ان جوهر التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يتم الا بفكر فعال يجيب عن كل المشكلات التي تواجه الانسان بصورة تجعل حركته في التاريخ تنسجم مع السنن الإلهية للكون.

ولقد أخلص بن نبي الى ان العالم الاسلامي يواجه تحديات كبيره داخلية وخارجية وقد عزز هدا الطرح وضع الجزائر التي بقيت تحت سيطرت الاستعمار الفرنسي لأكثر من قرن وربع القرن، ومع ان الجزائر شهدت يقظة في بداية القرن العشرين إلا ان الاستقلال السياسي لن يكون حلا ناجعا مالم تتم تصفية فكرة القابلية للاستعمار من الادهان والنفوس، وعليه فالسؤال المطروح هو:

ما هي الابعاد التنظيرية لبناء انسان المنظور الحضاري؟ وما محورية الانسان في هذه العملية؟

تحديد المصطلحات:

تعريف مالك بن نبي للحضارة:

لقد قدم "مالك بن نبي" للحضارة تعريفين: أحدهما تحليلي علمي (scientifique) ركز فيه على بنية الحضارة، أو بالأحرى كيفية تركيب الحضارة وعناصرها الأولية، والآخر (Opératoire) وظيفي ركز فيه على دورها في التاريخ، كما يحدد حقيقتها الرسالية.

أ- التعريف التحليلي: عرف الحضارة من الوجهة التحليلية بالمعادلة الرياضية التالية: إن الحضارة = إنسان+تراب+وقت (بن نبي، 1987: 49)

فمشكلة الحضارة في تحليلية، تنحل إلى ثلاث مشكلات رئيسية هي:

مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الزمن.

إن هذه العناصر الثلاث لا يمكن أن تنتج حضارة وهي منفصلة عن بعضها البعض، بل يضيف إليها "الفكرة المركبة catalyseur " وهو الدين الذي يعتبر مركب القيم الاجتماعية الذي يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة حالة انتشاره وحركته عندما يعبر عن فكرة جماعية، فالحضارة في نظره "بناء وليست تكديس لمنتجاتها"، ولكي تتم عملية البناء يجب أن نحل المشكلات الثلاث في أساسها. فلكي نقيم حضارة ما يجب أن نصنع رجالا في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم. (بن نبي، 1987: 50)

ب- التعريف الوظيفي: يعرفها " بن نبي" من زاوية أخرى بقوله: (فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين، أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه)، فمن هذه الوجهة الوظيفية فإن للحضارة مميزات وشروط هي:

-شروط معنوية، أخلاقية، ثقافية وشروط مادية الأمر الذي يجعل الحضارة خاضعة لمبدأ التوازن الذي يحفظها ويمنعها من الانحراف،

- عمل سوسيولوجي وهذا يشير إلى أهمية المجتمع وأسبقيته في العمل الحضاري، ويتضح لنا ذلك من خلال تركيز" بن نبي" على عنصر شبكة العلاقات الاجتماعية في تحديدها.
- الشخص (الفرد) يأخذ مكانة هامة باعتبار الحضارة من الناحية الوظيفية عملية تقديم الضمانات للفرد، حتى يتمكن من القيام بدوره المنوط به اجتماعيا (خالد السعد، 1997: 278)
- الحضارة أساسها الأفكار، فمن سنن الله في خلقه، أنه عندما تبزغ الفكرة وتشرق، يغيب الصنم ويغرب، وحينما تغيب الفكرة فإنه يحدث العكس (يبزغ الصنم).
- الحضارة عبارة عن أطوار اجتماعية يمر بها المجتمع عبر تاريخه الطويل. (بن نبي، 1992: 38)

المنظور الحضاري:

لقد أصبح هذا المفهوم مرادفا للمدنية او الثقافة او يشملها معا، ومنهم من ربط الحضارة بالحضر عكس البداوة، الا ان الحضارة بالإضافة الى هذا المفهوم، فهي مشتقة من الفعل حضر بمعنى الحضور نقيض المغيب والغيبة أي حضر يحضر حضورا، والحضارة تعني الحضور الدائم والمتجدد. (ابن منظور، 2004: 906)

ان البحث عن حقيقة المفهوم باستنطاق اللغة العربية والاستماع لكل الدلالات، وانطلاقا من هذا الجذر اللغوي يمكن التطرق للدلالات القرآنية لهذا المفهوم، لقد ورد في القران الكريم هذا اللفظ مرادفا للفظ "شهد" مثل قوله تعالى: (فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعده من أيام أخر) البقرة 185 اي حضر مجيء الشهر وشاهده ، حيث يؤدي لفظ الشهادة في القران اربع دلالات تتكامل فيما بينها فتتحد لتؤدي معنى الشهادة او الحضارة في الفهم الإسلامي اذ لا يمكن تجزئة هذه المعاني عن بعضها والا فقدت مضمونها ومعناها وهي:

أ- الشهادة بمعنى التوحيد والإقرار بالعبودية لله والاعتراف بتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية مثل قوله تعالى: (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحليم) ال العمران 18 وقوله صلى الله عليه وسلم :(بني الإسلام على خمس شهادة ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله وإقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا) اخرجه الشيخان.

ب- الشهادة بمعنى قول الحق وسلوك طريق العدل، أو الإظهار والتبيين، أو الإخبار المقرون بالعلم، أو الملاحظة والمراقبة، التي تعد مدخلا من مداخل العلم ووسيلة من وسائل تحصيل المعرفة.

ج-الشهادة بمعنى التضحية والفداء وتقديم النفس في سبيل الله، حفاظا على العقيدة ودفاعا عن تحرير الإنسان من عبادة العباد وإخراجه إلى عبادة رب العباد.

د- الشهادة التي تعتبر وظيفة هذه الامة المحمدية كما في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) البقرة 142

وقوله تعالى: (فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) النساء 41، (أبو الفضل، 2000: 77)

ابعاد الإصلاح التربوي عند مالك بن نبي:

لقد صنف مالك بن نبي المجتمعات في أسباب نشوئها، قوتها وضعفها، إلى نوعين:

أ- المجتمع الطبيعي: او البدائي سمته الركود، وهو الذي لم يعدل المعالم التي تجدد شخصيته منذ كان، فهو يتصف بمعالم ثابتة، مثل مستعمرة النحل او النمل والقبيلة الافريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي، هذا المجتمع الذي يكون ميلاده كاستجابة شبه آلية للتغيير الطبيعي،

وعن اختيار مفروض، والى هذا النوع ينتمي المجتمع الأمريكي، (بن نبي،2012 :10)

ب- المجتمع التاريخي: الذي ولد في ظروف أولية معينة، ولكنه عدل فيما بعد صفاته ومعالمه من جذورها ابتداء من هذه الحالة الأولية، طبقا لقانون التغيير، الذي يعمل على التطور المستمر، الذي يرى النور تلبية لنداء فكرة وهو النموذج الفكري (الإيديولوجي) الذي يتأسس تلبية لنداء فكرة، حركته فوعاها، وإلى هذا النموذج ينتمي المجتمع الإسلامي والأوربي الاصلي ويمكن اعتبار المجتمع الصيني والسوفياتي من هذا النوع، (بن نبي،2012: 12)

ج- وهو النموذج الذي يعتبره ابن نبي صالحا لبناء "حضارة"، وبالتالي فهو يضع من شأن الاستجابات الآلية للإنسان تجاه عالمه المادي، في مقابل إكباره لقيمة تأثير الفكرة في النفس الإنسانية وهو ما سوف يكون سببا في حملها إياها بوعي من أجل دخول مرحلة "الحضارة"، وينشأ بطريقتين:

- اما ان يتركب ابتداء من مواد جديدة، لم تتعرض لأي تغيير تاريخي سابق، فهو يستنفذ هذه المواد، في الحالة التي تكون عليها في الطبيعة
- واما من عناصر استخدمت في مجتمع تاريخي سابق، تحولت عناصره بسبب تقادمه او انبساط رقعته الى عناصر مهيأة للاستخدام في مجتمع جديد، وقد تكون الاستعارة في صورة هجرة تنزع هذه العناصر من المجتمع الام، كالهجرة التي كونت المجتمع الأمريكي الحالي، الذي تكون من عناصر قدمها له مجتمع متطور في حالة توسعه، وهو المجتمع الأوروبي. وقد تكون في صورة إعادة تركيب مجتمع اختفى بسبب حرب من الحروب مثل المجتمع الغالي الذي امتص من طرف المجتمع الروماني.

وتجدر الإشارة الى ان ظهور مجتمع تاريخي ليس حدثا عرضيا بل هو نتيجة عملية تغيير مطردة يشترك فيها المجتمع الذي يستعير، والذي يقدم العارية، وتشتمل هذه العملية على الجوانب التالية:

1-المصدر التاريخي لعملية التغيير المطردة

2-المواد التي تمر بتأثير هذا التغيير من حالتها قبل الاجتماعية، الى حالتها الاجتماعية الجديدة

3-القوانين والقواعد العامة التي تتحكم في هذا التغيير، ومن هذه الزاوية هناك نوعان من المجتمع، (بن نبي،2012: 11)

البعد التنظيري للإصلاح التربوي عند مالك بن نبي:

إن الدارس لكتابات مالك بن نبي يمكنه الجزم بأنها كتابات في التربية بالمعنى العام للكلمة، فإذا كانت هذه الكتابات تتمحور حول فكرة الحضارة ومشكلاتها، فإنها تنطلق من الحضارة لكي تصل إليها، أي تحديد الطرق المؤدية إلى الهدف المنشود وهو تحريك العالم الإسلامي، حتى يتخلص من رواسبه ومعوقاته وينطلق بإرادة وفاعلية نحو استعادة مكانته في التاريخ والحياة وفق شروط معينة.

فالمشكلات التي تواجه العالم الإسلامي متعددة، وذلك يتطلب أن نقوم بترتيبها منطقيا، حتى نعطي لكل نوع قيمته الحقيقية، دون أن نقع في شراك الشيء السهل أو المستحيل مدركين بأن للحضارة قانونها الذي لا يجامل أحدا، وبذلك يستطيع العالم الإسلامي أن يشق طريقه نحو دورة حضارية جديدة، وهذا لا يتأتى الا عن طريق الإصلاح التربوي الذي يرتكز على الابعاد التنظيرية التي سنأتي عليها بالتفصيل، فهي تبدأ بالحضارة لحصر هذه المشكلات لتنتهي إليها بغية إيجاد حلول لها، وتعتبر الإنسان اهم عنصر في عملية البناء الحضاري، حيث يرى ابن نبي أن(أي تفكير في مشكلة الانسان هو في الأصل تفكير في مشكلة الحضارة)، وأن حركات النهضة المختلفة التي ظهرت مع بداية القرن العشرين في العالم الإسلامي، ليست الا محاولات لحل المشكلة ضمن هذه الصورة، ولقد كانت المحاولات الإصلاحية في العالم الإسلامي متفاوتة في عمقها، وفي ابعادها لأنها لا تستند على نظرية محددة للأهداف والوسائل، ولا على تخطيط مسبق لمراحل عملية

الإصلاح، لآن طموح المصلح لم يكن متوجها الى البناء الحضاري والقيام بمهام الخلافة، والإبداع الفكري والروحي بل متوجه الى التردي والتقهقر والتقليد الأعمى

إن طريق الحضارة لا يمكن خطه تبعا للصدفة، بإقامة مدرسة هنا، وجامعة هناك، وسد هنالك...إن سيرنا كيفما اتفق قد يوصلنا يوما الى حل، ولكن متى يأتي هذا اليوم؟، وللإجابة على هذا التساؤل لابد من دراسة السنن الكونية والتاريخية، الخاصة بقيام الحضارات وزوالها، وهنا لابد من الإشارة الى طبيعة الضعف الذي أصاب انسان ما بعد الموحدين، ك"الذرية" مثلا هذا الشكل المرضي الذي أصاب هذا الانسان، الذي يرجع الى مظهرين:

الأول: انقلاب التخطيط المنهجي، ويمكن التأصيل لهذا المرض باعتبار أن التجربة التربوية ليست تخطيطا بسيطا يترجم عن علاقة مباشرة لسبب يؤدي الى نتيجة محتومة، بل انها متعددة الأوجه والابعاد، أي أن هناك تداخلا بين الأسباب والنتائج، في كيان معقد يظهر فيه أحيانا انقلاب في الوضع المنطقي، بحيث تسبق النتيجة السبب، ولكن هذا الانقلاب ما هو الا خداع نظر يعود في جوهره الى تعقد التجربة، ولا يعود مطلقا الى انقلاب في قوانينها، (بن نبي،2012: 82-83)
فلو طبقنا هذا البرهان على عملية اطراد الحضارة، فيجب ان ندرك حقا مبدأ هو أن (الحضارة هي من تصنع منتجاتها)، وبالتالي فلو عكسنا القضية وحاولنا صنع حضارة من منتجاتها، فسيكون هذا من التردي والسقوط، ومع الأسف هذا الانقلاب هو الوضع الفوضوي في النهضة الاسلامية، ونحن ندين له بهذا التكديس والتكويم الذي يبدو أنه يقود الى تطور في المجتمع الإسلامي نحو حضارة "شيئية"، والى استحالة كما وكيفا

- ناحية الكيف: تكمن الاستحالة في أن أي حضارة لا يمكن ان تبيع جملة واحدة الأشياء التي تنتجها ومشتملات هذه الأشياء، أي انها لا يمكن ان تبيعنا روحها وافكارها وثرواتها الذاتية واذواقها، وهذا ما ينطبق تربويا في استعارة واستيراد

منظومة تربوية وتطبيقها كما تم تحديدها في المجتمع الأصلي الذي تبلورت ونضجت في احضانه بخصوصياتها وابعادها، المعرفية، الوجدانية والمهارية (النفس حركية)، والدليل على ذلك ما حققته المقاربة بالكفاءات في النظام التربوي الجزائري بين الكفاءات المستهدفة والنواتج التعليمية، (بن نبي،1987: 20)

- ناحية الكم: لن تكون الاستحالة اقل، فليس من الممكن ان نتخل العديد الهائل من الأشياء التي نشتريها، فسينتهي بنا الامر الى ما اسميه " الحضارة الشيئية "، الى جانب انه يؤدي الى (تكديس) هذه الأشياء الحضارية. ومن البين ان العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع اكوام من منتجات الحضارة، أكثر من ان يهدف الى بناء حضارة، وقد تنتهي هذه العملية ضمنا الى ان نحصل على نتيجة ما، بمقتضى ما يسمى بقانون الاعداد الكبيرة، أعنى قانون الصدفة، فكوم ضخم من المنتجات المتزايدة دائما يمكن ان يحقق على طول الزمن، وبدون قصد (حالة حضارة)، (بن نبي، 1987: 48)

إن العالم الإسلامي يريد انجاز مهمة تركيب حضارة في زمن معين، الذي تسعى اليه كل الأمم والمجتمعات، لهذا وجب عليه أن يقتبس من الكيميائي طريقة تركيب هذه المنتجات الحضارية، إذا قررنا أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية التالية: "**ناتج حضاري = إنسان+ تراب+ وقت**"

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة الى أن مشكلة الحضارة تتفرع الى ثلاث مشاكل أولية: مشكلة الانسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، (بن نبي، 1987: 49)

فالحضارة لا تبنى بتكديس المنتجات الحضارية، وانما بحل لغز هذه المشكلات الثلاثة من أساسها، عن طريق ما يسمى مركب الحضارة، أي العامل الذي يؤدي الى مزج هذه العناصر الثلاثة، وهي الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ البشري

الثاني: الضعف التاريخي، ويتعلق باختيار (النموذج)، فكل حضارة تتكون وتتشكل، لها نموذجها ومثلها الذي تجعله نصب عينها، وقد يكون هذا مستمدا من الحاضر او من الماضي التاريخي، وقد يشملهما معا، وعلى الرغم من هذا السبات العميق للامة الإسلامية، انبعثت أصوات من هنا وهناك تنادي بفجر جديد، كجمال الدين الافغاني، محمد عبده، جمعية المسلمين الجزائريين...

وهذا ما عرقل ارتقاءها لتحقيق البناء الحضاري، الذي لن يتم إلا بدراسة النماذج الحضارية في العالم؛ فضلا عن بحث مفهومها المختلف حوله، وهذا انطلاقا مما جاد به فكر ابن خلدون، والذي يعتبر السباق إلى إطلاق هذا الدال على الطور الثاني من حياة الدولة، اذ توافق الحضارة عنده الترف الذي يعتبر حصوله مستلزِما لانهيار الدولة كأخر مرحلة في حياتها، وقد أعجب ابن نبي بإقحام ابن خلدون للمبدأ السببي في معالجته للتاريخ، بعد أن كان من قبله سرديا فأدخله إلى علوم العقل بعد أن ألحقه كثير من مفكري العرب بالعلوم النقلية، (بن نبي ،2012: 87)

فالمجتمع الإسلامي –مثلا– ولد عند ظهور "الفكرة القرآنية" التي تقبلتها روح المسلم فأكسبته "توترا داخليا" دفع روحه للاستجابة لنداء الفكرة فتخضع الشيء لأهدافها، ثم يبدأ عالما "الأشياء والأشخاص" بالتوازن في مرحلة العقل، وهي مرحلة تبليغ "الفكرة" وتطبيقها، ولكن مع مرور الوقت يخبو ذلك "التوتر الداخلي"، فيأخذ "الشيء" في الاستيلاء على "الفكرة" فيخضعها لسلطته، وهذه هي المرحلة الأخيرة من تطور الحضارة والتي سماها ابن نبي ب: "مرحلة الغريزة" التي تتجمد فيها فاعلية الفكرة اجتماعيا، (بن نبي،2005: 49)

شروط الثقافة عند مالك بن نبي:

1–التوجيه الأخلاقي:

يولي ابن نبي أهمية كبرى للتوجيه الأخلاقي والذي تحمله تعاليم الدين، إذ تعمل الروح الخلقية في الديانات السماوية على توافق الأفراد ضمن حياة اجتماعية

منظمة، وتسعى إلى تحقيق انسجام طاقتهم الحيوية لتسمح باستمرارية تماسك شبكة العلاقات الاجتماعية، لقوله تعالى: (وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) سورة الأنفال، الآية: 63، فهل كان الرجل الأنصاري ليقاسم المهاجر ماله وينكحه من يختار من أزواجه قبل مجيء الإسلام؟ فالدين عند مالك بن نبي هو المؤثر الأكبر في ميلاد الحضارة، إذ يهدف الدين –عموما–إلى دفع النفس الإنسانية إلى الانضباط حتى لا تطغى عليها النوازع الجبلية كالأنانية وحب التملك أمام لغة العقل المتخلق، (بن نبي 2005: 49)

2–التوجيه الجمالي:

يتجلى الجمال عند مالك بن نبي في الألوان والأشكال والحركات التي يقبلها الذوق السليم، مما ينعكس إيجابا على أفكار صاحبه، فيوجهه إلى الشعور بقيمة كرامته فيرقى بسلوكياته إلى الفضيلة، فالمظهر الجمالي طبيعيا كان أم فنيا يعد سبب في توجيه الكيان الإنساني إلى الرقي بفكره ووجدانه، فهو لبنات تكرس تناسق إيجابيات بنيته النفسية وتوافق المبدأ الأخلاقي السليم، وإذا عرفنا أن هذا الأخير قد يكون فيه من القسوة الظاهرة على معتنقيه، ما ينفر البعض منه، فإن اتصاله بالتوجيه الجمالي النابع من ذوق سليم سبب في شعور المتلقي لهما بتطابقهما، فلا يعي المبدأ الأخلاقي إلا بحكم أنه جميل، وهذا بدوره تكريس لمصداقية وفاعلية "المبدأ الأخلاقي" في واقع المجتمع، مما يعطي القابلية لإبداع المفكرين المعنيين، (بن نبي، 1984: 81–82)

3–الفاعلية:

يعتبر ابن نبي "المنطق العملي" مستمدا معاييره من رصده لإمكانيات الواقع الاجتماعي، حتى يتمكن الشخص من الربط السليم بين العمل ووسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل او نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمد معاييره من واقع

الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانيات، (انه ليس من الامر الصعب على المسلم ان يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة)، غير أنه من النادر ان نستخرج أقصى ما يمكن استخراجه من الفائدة من وسائل معينة، خصوصا وهذا التقهقر الحضاري، فنحن أحوج ما نكون الى تفعيل هذا المنطق العملي في حياتنا كأفراد وجماعات ، أما "الفعالية" فهي تمثل كيفية ذلك الارتباط، والتي يحتاجها العقل المجرد المتوافر بكثرة في مجتمعاتنا، أما "العقل العملي" فينطلق من الإرادة والانتباه غير المتوفرين في الدول النامية.

أنظر الى الهدي النبوي (صلى الله عليه وسلم) كيف يتعامل مع معيار الزمن، بقوله: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)، رواه البخاري

يقول ابن الجوزي:(قد يكون الانسان صحيحا ولا يكون متفرغا، لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيا ولا يكون صحيحا، فاذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن الا الهرم لكفى)، (بن نبي،1984: 87)

وعلى هذا الأساس فإننا نرى جانبا كبيرا في حياتنا اليومية من (اللا فاعلية) في اعمالنا وسلوكياتنا، اذ يذهب جزء كبير منها في العبث، وإذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإن سببها يكمن في افتقارها لضابط يربط بين العمل والهدف، او بمفهوم التربية والتعليم نقول في الميدان التربوي، بين المدخلات والمخرجات، بين الفلسفة التروية وتطبيقاتها، بين الثقافة ومثلها، وأكثر من هذا وذاك بين ما نعتقده وما نمارسه، ولننظر الى واقعنا لنقارن بين الرجل المسلم وغيره، أيهما ذو نشاط وعزم وحركة دائبة، بكل أسف ليس هو الرجل المسلم، الذي تلقى هذه التوجيهات الربانية، ألم نقل(ان الذي ينقص الانسان المسلم ليس منطق الفكرة، بل ينقصه منطق

العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا، بل أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا علميا، ويقولون كلاما منطقيا) من شأنه أن يتحول الى عمل جاد ونشاط، ومن هنا يأتي عقمنا التربوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، (بن نبي، 1987 :103)

4-مبدأ الصناعة:

ويقدم ابن نبي الصناعة أيضا بمصطلح "التقنية" و"العلم" و"التوجيه الفني"، مع أنها مصطلحات غير مترادفة عند غيره، وهي دالة على "كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم" ، والصناعة بهذا "تتداخل جدليا مع "المنطق العملي"، فهي من جهة تعد نتاجا له، لكن ما أن تتجسد في الواقع فإنها تمكن من تمحيص مدى فاعلية إدارة الإنسان ل "المنطق العملي" الذي جمع بين الوسائل والمناهج التي أنتجت تلك "الصناعة"، لكن ابن نبي لم يقدم "فصلا نوعيا" بين "القدرات" التي جاءت في تعريف "الصناعة"و"المنطق العملي" الذي هو أيضا "قدرات" لكن: في مجال محدد نظري يوجه إلى العمل.

فإذا كانت "الصناعة" وسيلة لازدهار حياة الفرد ومنحه قيمة اجتماعية فهي من بعد أوسع، وسيلة لبناء المجتمع، وما احتل الغرب الريادة إلا عندما وجه طاقاته لاستثمار هذا المجال الحيوي متوسلا المادة والإنسان لتحقيق أغراضه؛ وهذا يعني أنه لا مجال للمساواة بين العلم والثقافة، ليخالف ابن نبي بهذا الموقف الفكرة التي راجت في أوربا عن استبدال الدين بالعلم، لأن طبيعة الثقافة هي انعكاس لطبيعة الوجدان الإنساني الذي يوجهها، يكفي أن يوجه صناعته لخدمة مبدئه الأخلاقي، حيث أن تلك الصناعة لا تعدو أن تكون وسيلة لا غا ية، ويدرك مالك بن نبي أنه إذا كان للتعليم الجامعي -مثلا- تأثير جزئي في تغيير بعض أشكال التفكير فإنه يعجز عن إلغائها، في مقابل ذلك تعتبر أن (الوسط الاجتماعي هو الأقدر على تغييرها جذريا بفعل التربية المجتمعية)، (بن نبي، 1987 :104)

مراحل الدورة الحضارية:

إن دورة الحضارة في نظر "مالك بن نبي" تمر بثلاث مراحل كما يلي:

أولا: مرحلة الروح:

تشهد ظهور قيم روحية جديدة في المجتمع، والتي يعزى إليها الفضل في نقله من حالته الطبيعية البدائية إلى حالته الفعالة المتحركة التي تدفع به إلى الدخول في حلبة التاريخ، إذ بتوغلها وتمكنها من النفوس المستعدة لتمثلها، توقظ طاقتها الحيوية الكامنة وتدفعها إلى التضحية والعطاء، لتنطلق في عملية البناء الحضاري وفق الخطوات التالية:

1- الفكرة الدينية:

إن الحضارة في تصور "بن نبي" تتمثل نقطة انطلاقها وانبعاثها في الواقع من شرارة الفكرة الدينية في المجتمع الذي يكون خام، حتى تبعث فيه الروح التي تنشطه وتثير فيه قوته فيتحرر الفرد في هذه المرحلة الأولى الصاعدة من هيمنة الغريزة ويخضع لهيمنة الروح.

ينطلق "مالك بن نبي" في تصوره من خلال استقرائه لتاريخ الحضارات، حيث يؤكد قائلا:(كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي وجد سطورا من الفكرة الدينية)، ولقد أظهر علم الاثار ان من بين الاطلال التي كشف عنها بقايا الآثار التي خصصها الانسان القديم لممارسة شعائره الدينية، أيا كانت تلك الشعائر، بل حتى في قوانين الأمم الحديثة فهي لاهوتية في أساسها، دينية في جوهرها، لا سيما القانون الفرنسي الذي اشتقه "نابوليون" من الشريعة الإسلامية اثناء حملته على مصر، اين اكتشف هذا الخير العميم الذي ارتشف من معينه، (بن نبي، 2012 :56)

وكما يقول أيضا عنها:(ومن هنا يستطيع المؤمن ادراك الحقيقة الساطعة التي يفسرها التاريخ في الفقرة التي وردت في أحد الكتب المنزلة القديمة في البدء كانت الروح)، وتحدث " بن نبي" كثيرا عنها في كتابه "ميلاد مجتمع" حيث نجده يقول (فسواء كنا بصدد المجتمع الاسلامي او المسيحي، او كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم أو اختفت تماما من الوجود، نستطيع ان نقرر ان الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية)، ومعنى هذا ان الظرف الاستثنائي الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره، (خالد السعد، 1997 :220)

فالمتأمل لتاريخ الحضارات السابقة وما تركته لنا من آثار والتي لا تزال قائمة يستطيع التعرف على ما في الفكرة الدينية في هذه الحضارات من دور كبير وأثر عظيم، لذلك يجب البحث في كل حضارة عن أصلها الديني، فالدين يعد نزعة فطرية في نفس الإنسان، ولا توجد أمة من الأمم في التاريخ عاشت أو مضت دون أن يكون لها تصور بشكل من الأشكال عن الدين أو الألوهية أو المصير. كما أن له أهمية كبرى كونه يلبي حاجاته الروحية، مما يعني أنه جاء لتلبية مصلحة الإنسان، فمثلا إذا تأملنا تشريعات الإسلام كلها، بما في ذلك المتعلقة بالعبادات نجدها تنطلق من منطلق واحد، هو مصلحة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، يكون للإنسان في هذه المرحلة من النمو الحضاري في نظر"بن نبي"" (روح متأججة كلها إيمان وأمل، تسمو نحو المثل العليا التي رسمتها الفكرة الدينية) وتبذل في تحقيق مشاريعها جهودا مضاعفة خارقة للعادة، حيث تتميز هذه المرحلة باندفاع روحي قوي يتحكم في العقول، ويقوي الشعور ويوظف الغرائز الفطرية في خدمة المثل العليا، ويكون المجتمع متماسكا مترابطا في كل حضارة، وهذا أمر لا يمكن تجاهله، فهو الذي يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز، (بن نبي، 2012 :108)

لهذا نجد الفكرة الدينية أخذت قسطا كبيرا في كتاباته لأنه ينسب الحضارة إلى الدين، معتمدا في ذلك على استقراءاته لصفحات التاريخ الحضاري من جهة، وعلى ما اسفرت عليه دراسات بعض المفكرين والمؤرخين من جهة أخرى، فهو يريد أن يجعل علاقة الحضارة بالدين احدى المواضيع التي تحتاج الى تأمل واستقراء، مستخدمين في ذلك وسائل البحث العلمي التنظيري، ويرى" بن نبي" انه لكي تنتظم الحياة بمقتضى القيم الروحية الجديدة التي تجعل المجتمع يشهد ميلادا جديدا، لا بد من توفر شرط أساسي ألا وهو وجود "إنسان الفطرة"، أي الإنسان الطبيعي المنطوي على الطاقة المدخرة القابلة لأن تؤدي عملا نافعا، (فالمجتمع مضطر ان يستعير من طبيعته، اعني من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ)، (بن نبي، 2012: 109)

فالإنسان عندما يكون في حالة سابقة من الحضارة، أهم ما يميزه كونه مستعدا للدخول في دورة حضارية بناء على المؤهلات الطبيعية الخام التي تنطوي عليه شخصيته، كما كان شأن العرب المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانوا مستعدين لخوض تجربة حضارية.

ويتضح لنا من خلال قراءتنا لفكر" مالك بن نبي" أنه قد توقف كثيرا عند لحظة دخول الدين إلى المجتمع، ليوضح الأثر الذي تحدثه الفكرة الدينية في البناء الاجتماعي للمجتمع البدائي، وكيف يتحول إلى مجتمع تاريخي، فدخول الدين إلى ذلك المجتمع يؤثر في البدء في عوالمه الثلاث: الأشخاص، الأفكار، الأشياء ليشكل شبكة العلاقات الاجتماعية، فإنسان الفطرة الذي كان عند نقطة الصفر خامدا ساكنا تحكمه الغريزة وتسيطر على تفكيره وسلوكه، ستتولى الفكر الدينية إخضاعه لعملية تكييف شرطية ليس من شانها القضاء على الطاقة الحيوية أو الغرائز، بل تنظيمها في علاقة مع مقتضيات الفكرة الدينية (فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين)"

(بن نبي، 2012 :110)

ففي مرحلة الروح نجد قانون التغيير الاجتماعي الذي يعتبر قانون البناء الحضاري، ينصب على تغيير الإنسان الذي يعتبر العنصر الجوهري في هذه العملية، ويتحول من فرد يخضع لغرائزه إلى شخص يرتبط بالمجتمع، بعد أن حولته الشرارة الدينية إلى عنصر فعال متحرك يشكل مع التراب والوقت عوامل التغيير الاجتماعي والحضاري

المراجع :

ابن منظور جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان،

مالك بن نبي: آفاق جزائرية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1992

مالك بن نبي، شروط النهضة، الملكية للإعلام والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 4، 1987

مالك بن نبي، فكرة الافريقية الاسيوية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط8، 2012

مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ت: عبد الصبور الشاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 2، 2005

مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سورية، ط9، 2012.

مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1992

منى أبو الفضل، المنظور الحضاري وخبرة تدريس النظم السياسية العربية، 2000

نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي: دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية، جدة، السعودية، 1997